العرب
الأربعاء 2020/04/01
السنة 42 العدد 11664

أمل ينبثق من روح الأزمة

هل يخرج العالم من حال الرعب إلى نهضة جديدة؟

من الطاعون إلى كورونا.. كلما اجتاح العالم وباء فتح الباب أمام تغيرات مفصلية

في أعقاب تفشي فايروس كورونا المستجد الذي يجتاح العالم حاليا، يسلط متابعون الضوء على جملة من التحديات التي تتربص بالنظام العالمي والعولمة، ويرى هؤلاء أن حالة الرعب التي بثها الفايروس في أرجاء العالم ستكون لها تداعيات على النظام الدولي وستنتج عنها تغييرات مفصلية، بعد أن نجح الوباء في كسر حالة الثبات السياسي والمجتمعي والتقني والبيئي السائدة، كما سيكون العالم مقبلا على معارك من نوع آخر وهي حروب بيولوجية مناخية سرية وبرامج خبيثة ضارة وستكون الأكثر كلفة من أية حروب تقليدية سابقة.

د. حسن مصدق
أستاذ في جامعة فانسين باريس 8

باريس - أعاد فايروس كورونا المستجد إلى الذاكرة معاناة البشرية الطويلة مع الأوبئة والجوائح الجرثومية، خاصة تلك التي غيرت مجرى التاريخ. فمثلما كان للطاعون "الفضل" في انحسار دور رجال الدين والكنيسة في القرن الرابع عشر، وظهور عصر النهضة، يطرح فايروس كورونا، اليوم، أسئلة حول مصير النظام العالمي والعولمة، وإلى أي مدى سيكون لحالة الرعب الراهنة دور في إعادة رسم ملامح خارطة العالم اقتصاديا وصحيا وبيئيا واجتماعيا وسياسيا.

تتجاوز الأوبئة تداعياتها الصحية؛ فكلما اجتاح العالم وباء كبير فتح الباب أمام تغيرات مفصلية. ويحتل الطاعون أهمية كبرى في هذا التاريخ. وكانت له آثار هائلة على تطور الحضارة الحديثة. يعد هذا المرض أحد أسباب انهيار الإمبراطورية الرومانية. لكن ذكره يأتي غالبا عند الحديث عن النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر.

إذا ساهمت العولمة في انتقال البضائع وتدفق المعلومات ورأس المال، فقد ساعدت أيضا على انتشار أمراض معدية عن طريق الهواء، والماء والدم والاتصال المباشر، بالإضافة إلى الحشرات وحيوانات. وعلى غرار كورونا اليوم، كان للسفر و"العولمة" التجارية دور في انتشار الطاعون وانتقاله من آسيا إلى أوروبا. نشر الطاعون الموت الأسود في أوروبا. وكان لتداعياته مظهران، الأول اقتصادي صناعي حيث تسببت وفاة 50 مليون شخص تقريبا (60 في المئة من سكان أوروبا) في فقدان اليد العاملة، وبالتالي ارتفاع الأجور. وكان ذلك سببا في تسريع وتيرة التحديثات الاقتصادية والاجتماعية والتقنية.

ويتمثل المظهر الثاني في ظهور ثنائية الشرطي ورجل الدين، ضمن صراع انتهى لصالح الأول، ووضع لبنة الدولة المدنية العلمانية في أوروبا. مع انتشار الطاعون وسقوط الملايين من الضحايا، شعر الناس بعجز الكنيسة ورجال الدين عن إنقاذ أرواح البشر، وبالتالي حل الشرطي محل الكاهن.

يمكن القول إن هذا الوباء فتح الباب أمام مراجعة جذرية لمكانة الدين السياسية، بحيث كان لإنشاء الشرطة دور كبير في حماية حياة الإنسان وضمان الأمن.

وبالتالي ولدت الدولة الحديثة والعقلانية العلمية كإحدى نتائج هذا الصدام بين عالمين من جراء وقوع هذه الكارثة الصحية، حيث كشفت عن عجز السلطة الدينية والسياسية عن إنقاذ أرواح البشر، وبذلك حل الشرطي محل الكاهن.

ثم تكرر الأمر في نهاية القرن الثامن عشر عندما حلّ الطبيب محل الشرطي. بمعنى أن الإنسانية مرت خلال قرون من سلطة قائمة على الإيمان إلى سلطة قائمة على القوة والإكراه لحفظ الأمن، ثم مرّت بعد ذلك إلى سلطة قائمة حول دولة القانون. بمعنى أنه بعد أي جائحة أو وباء يحل، يتوقع أن يطال التغيير نظم ومعتقدات العالم الذي يظهر فيه الوباء.

القوة الفايروسية المدمرة

أول ما يطرحه التحول الوبائي هو علاقة الإنسان بأمراضه التقليدية والمحتملة، وهذه دائما في ارتباط وثيق بالتحولات الإحيائية والبيئية. ذلك أن التحولات الوبائية تنجم بالأساس عن تفاعل المحددات والأنماط الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية، بخاصة أن دورة التحول الوبائي تمرّ دائما بخمس مراحل رئيسية، هي: الأوبئة والمجاعات، انحسار الأوبئة، الأمراض التناكسية (أمراض مزمنة)، الأمراض المتأخرة، والأمراض المنبثقة والمستجدة، ولكلّ منها سماتها الخاصّة بها في كل مرحلة تاريخية معينة.

وبناء على ذلك، تتمحور مشكلات الأوبئة الأساسية في علاقة الإنسان بالطبيعة. والشاهد على ذلك يتضح في كون هذه المحددات تلقي بثقلها على الملامح الصحية للمناعة، كما حدث مع أمراض النوم في أفريقيا والتي قضت على الملايين من السكان في بحيرة فيكتوريا وأوغندا وجنوب السودان وكينيا. أما بالنسبة إلى فايروس كورونا المستجد فإن سبب الرعب الحالي نوع المتغيرات الحاكمة والسريعة في عالم اليوم، والتي تكسر حالة الثبات السياسي والمجتمعي والتقني والبيئي.

وقد سيطرت نظرية المؤامرة مع ظهور هذا الفايروس، أكثر من غيره. وفي مجال الأدب، تكفي الإشارة إلى رواية الخيال العلمي "عيون الظلام" (1981) للكاتب الأميركي دين كونتز، حيث ينتشر سلاح بيولوجي (ووهان 400) قاتل، تمت صناعته في مختبر سري صيني للأسلحة البيولوجية والكيمياوية. في أول طبعة للرواية، كان المختبر سوفييتيّا "غوركي 400"، لكن كونتز غيّر الاسم ليصبح صينيا في طبعة 2008 و2020.

وفي رواية كونتز، نجد أن "ووهان 400" يقتل الناس عن طريق مهاجمة الدماغ، حيث نقرأ: "ينتقل الفايروس إلى جذع الدماغ، وهناك يبدأ في إفراز مادة سامة تآكل حرفيا أنسجة الدماغ مثل حمض البطارية الذي يُذوّب القماش القطني".

وغذى نظرية المؤامرة اتهام السناتور الجمهوري توم كوتون الصين (في جلسة استماع للجنة القوات المسلحة بمجلس الشيوخ في 30 يناير) بخداع العالم وإخفاء سر الوباء. بالمقابل، اتهم البعض الولايات المتحدة بتطوير الفايروس في إطار الحرب التجارية بين واشنطن وبكين، وبهدف إضعاف ثاني أكبر اقتصاد في العالم.

ثم قامت وسائل إعلام روسية باتهام الاستخبارات الأميركية وكارتل الأدوية بالوقوف وراء الفايروس لغاية تجارية. بالإضافة إلى الأخبار المزيفة التي روجت لها بعض الفضائيات العربية باعتبار كورونا المستجد فايروسا ولد في أقبية المختبرات السرية، وهو ما يخلط بين أنواع فايروسات كورونا التي تتم دراستها ودراسة أنواع جرائمها وتحولاتها الممكنة.

حرب بيولوجية

على هذا المستوى، فتح وباء كورونا المستجد المجال لعوالم رعب جديدة، تصاحبها تكهنات بحرب بيولوجية وحروب مناخية سرية وبرامج خبيثة ضارة. ونتيجة المعركة هذه المرة ستكون أكثر كلفة من أيّة حروب تقليدية، فهي تستعمل البرمجيات الخبيثة بدلا من الرصاص والفايروسات البيولوجية والتقنية بدلا من القنابل.

ولا تنتج الحرب السيبرانية صورا درامية مثلما تفعل انفجارات القنابل، لكن قائمة ضحاياها ضخمة. وبالتالي، يصعب اليوم تقدير كل التطورات المحتملة في ظل انقلابات بيئية واجتماعية وبيولوجية وتكنولوجية قد تساعد على تطور فايروسات أو التقائها وتحولها من جديد مع أمراض أخرى خطيرة موجودة أصلا بيننا، ما يعمّق أثر المصادر غير التقليدية في تهديد السلم والأمن العالميين في وقت يشهد فيه العالم صعود الشعبوية وعولمة منفلتة العقال وضعفا في النمو واختزالا وانتقائية في معالجة الأزمات الدولية. فهل يستطيع النظام العالمي الصمود في وجه عالم الفايروسات الجديد ويشهد نهضة جديدة من رحم التراجيديا التي يعيشها اليوم؟

> وباء كورونا المستجد يفتح المجال أمام عوالم رعب تصاحبها تكهنات بحرب بيولوجية وحروب مناخية سرية وبرامج خبيثة

بعض التاريخ تصنعه مؤامرات وكورونا ليس استثناء

علي قاسم
كاتب سوري
مقيم في تونس

البشرية ستخرج منتصرة ضد وباء كورونا؛ سبق لها أن نجت من أوبئة مماثلة. ولسبب أو لآخر، حدثت أربعة من تلك الأوبئة على فترات متباعدة تفصل بين الواحدة والأخرى منها مئة عام تقريبا.

في عام 1720، انتشر الطاعون المضاعف على نطاق واسع، وسُمِّيَ حينها "طاعون مرسيليا العظيم"، وتشير الأرقام إلى أن أكبر عدد من ضحاياه وقع في مدينة مرسيليا، حيث قتل الوباء أكثر من مئة ألف شخص.

ثاني تلك الأوبئة هو الكوليرا، انطلق من بلدان شرق آسيا، تايلاند وإندونيسيا والفلبين، ومنها انتقل إلى دول أخرى، ليتم في عام 1820 تسجيل أكثر من مئة ألف حالة وفاة في آسيا وحدها، وتشير السجلات العلمية إلى أن الكوليرا بدأت من أشخاص شربوا ماء ملوّثا.

آخر وباء سبق كورونا، كان الأنفلونزا الإسبانية عام 1918، التي أصابت أكثر من 500 مليون شخص؛ فقد ما يقارب 100 مليون منهم حياته في جميع أنحاء العالم. وكانت تلك الجائحة الأكثر دموية في التاريخ المسجل.

في كل مرة كانت البشرية تخرج منتصرة، ولكن بعد أن تدفع الثمن غاليا، وهي ستخرج هذه المرة منتصرة، ولكن بأي ثمن؟

الأهم من ذلك، هل كان بالإمكان تلافي هذه الجائحة؟ وما هي الاستعدادات التي اتخذتها الحكومات والدول لمجابهة مثل هذا السيناريو؟

واضح من الارتباك الذي حصل، إثر انتشار كورونا، أن العالم لم يستعد مطلقا لمجابهة مثل هذه الأوبئة، رغم تحذيرات ظهرت على فترات، تحدثت عن كارثة سيتسبب بها انتشار فايروس، صدرت عن هيئات علمية مرموقة.

نفس الحكومات التي تجاهلت مخاطر، قد تنجم عن تفشي الأوبئة، أقنعت شعوبها بضرورة صرف آلاف المليارات في التسابق على امتلاك أسلحة نووية وأنظمة دفاعية، مروجة لمخاطر حرب نووية كونية.

آخر تلك التحذيرات جاء على لسان رئيس منظمة الصحة العالمية السابق، جروهارليم براندتلاند، الذي حذر من أن مرضا، قد يكون نوعا من الأنفلونزا، سينتشر ليعم العالم بسرعة قياسية لا تتجاوز 36 ساعة، ويقتل 80 مليون إنسان، ويدمر ما يقارب 5 في المئة من الاقتصاد العالمي، وفقا لتقرير نشر بتاريخ 18 سبتمبر 2019.

وأصدر مجلس رصد الاستعداد العالمي (GPMB)، وهو فريق من خبراء الصحة، التقرير في محاولة لحث قادة العالم على العمل.

حسب التقرير، لن تقتصر الخسائر على الأرواح البشرية؛ وباء عالمي بمثل هذا الانتشار، سينجم عنه فساد على نطاق واسع، ويهدد الاستقرار والأمن، بينما العالم مرتبك، غير مستعد لمجابهة النتائج المترتبة عليه.

وقال التقرير الذي حمل اسم "عالم في خطر"، إن الجهود الحالية للتحضير لتفشي المرض غير كافية على الإطلاق.

ومن بين الفايروسات التي حذر منها التقرير فايروسات الإيبولا، وزيكا، ونيباه وخمسة أنواع من الأنفلونزا.

واختتم التقرير بعبارة قوية جدا: إن "انتشار وباء في جميع أنحاء العالم خطر حقيقي".

الملياردير الأميركي بيل غيتس، مؤسس شركة "مايكروسوفت"، لفت في مؤتمر، عقد عام 2015، إلى فشل الدول الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة، في التعامل مع الأوبئة.

عندما كنت صغيرا، يقول غيتس، كانت الكوارث التي شكلت مصدر قلق لنا، أكثر من غيرها، هي الحروب النووية، لنكتشف الآن أن أكبر خطر يواجهه العالم ليس خطرا نوويا.

"إن كان هناك شيء سيتسبب في قتل أكثر من 10 ملايين شخص، في العقود القليلة القادمة، فهو حتما ليس صواريخ، بل الفايروسات، لقد استثمرنا مبالغ كبيرة في مجال التسلح النووي، واستثمرنا القليل في نظام يساعد على منع الوباء، ونحن لسنا مستعدين للوباء القادم".

وكان غيتس قد أعلن مؤخرا عن اتخاذ قرار للانسحاب من مجلس إدارة "مايكروسوفت" ومجلس مدراء شركة "بيركشاير هاثاواي" الاستثمارية، موضحا أنه يريد التركيز على مشاريع خيرية تتعلق بالصحة العالمية والتنمية والتعليم ومحاربة التغيرات المناخية.

لا نعلم إن كانت مجرد صدفة، ولكن عاد الرقم عشرون للظهور مجددا، مع وباء كورونا. وقبل ثلاثة أشهر من تفشي المرض في الصين، تنبأ علماء أميركيون، في تحذير تقشعر له الأبدان، بأن فايروس كورونا قد يقتل عشرات الملايين من البشر.

يجب أن نأخذ التحذير على محمل الجد، فهو صادر عن علماء في مركز جونز هوبكنز للأمن الصحي، قاموا بتطبيق نموذج وبائي افتراضي، كجزء من الأبحاث في أكتوبر الماضي، وتوقعت المحاكاة أن الوباء سيقتل 65 مليون شخص خلال 18 شهرا من تفشيه في العالم عام 2020.

وحتى يوم الاثنين، تسببت جائحة كورونا في مقتل أكثر من 36 ألف شخص، وإصابة أكثر من 768 ألفا.

وقال الدكتور إريك تونر، وهو باحث في جونز هوبكنز، إنه لم يشعر بالصدمة عندما ظهرت أنباء عن انتشار فايروس كورونا في ووهان أواخر ديسمبر الماضي.

واقترحت المحاكاة، التي أجراها الدكتور تونر، أن دول العالم كلها ستشهد بعد ستة أشهر حالات من فايروس كورونا.

وحدد التقرير سلسلة من الإجراءات التي يجب على المجتمع الدولي اتخاذها لحماية الناس، في حال انتشر المرض وخرج عن نطاق السيطرة، ومن بينها التزام الحكومات بتخصيص الأموال الضرورية لوضع الاستعدادات في مكانها والقيام بتجارب محاكاة روتينية.

الرقم الذي وافق عليه مجلس النواب الأميركي مؤخرا، وهو 2.2 تريليون، لمواجهة الأزمة يبدو كبيرا جدا، وهو رغم ذلك رقم مضلل، لأنه مخصص لإنقاذ الاقتصاد الأميركي وليس لمواجهة الفايروس.

لنكتشف معا، كم أن حياة البشر لا تساوي شيئا، مقارنة بالمغامرات العسكرية، الوهمية غالبا.

في الوقت الذي أقر فيه الرئيس الأميركي، دونالد ترامب، ميزانية بقيمة 8.3 مليار دولار فقط لمكافحة فايروس كورونا، وصفها بالعاجلة، ترتفع إلى 50 مليار دولار في حالة إعلان الطوارئ، بلغت ميزانية وزارة الدفاع الأميركية 738 مليار دولار، أي ثمانية أضعاف ما هو مخصص لمكافحة كورونا.

ومع ذلك، عندما نتحدث عن مؤامرة، نوصف بالسذاجة. سيداتي سادتي: أعترف وأقر أني ساذج، وأن في الأمر مؤامرة. التاريخ كله حاصل مجموعة مؤامرات.

دعوة للتفاؤل